

دلالات توظيف ضمير المتكلم في السيرة الذاتية - قراءة في المفهوم والإجراء

د. ناصر برككت

جامعة المسيلة

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن دور المتكلم في السيرة الذاتية، انطلاقاً من الوقوف على المفاهيم المتصلة بهذا النوع من الكتابة وإجراءاتها الفنية والأسلوبية التي تحيل على الذات في انتمائها النصي من جهة وحضورها الواقعي من جهة أخرى. إن استعمال (الأنا) له أبعاده ومستوياته المحددة لخصوصيته التي تؤكد أهميته ودوره في تحديد هوية الذات حينما تنعكس صورته على مساحة ورقية يخالها الكاتب كافيّة لاختصار مراحل حياته العمرية بدءاً من مولده وانتهاءً بلحظة الكتابة المرتبطة بإجراء بعمق الإدراك للواقع وتقلباته.

الكلمات المفتاحية: السيرة، ضمير المتكلم، الذات، الأنا

Résumé:

Cette étude vise à trouver le rôle de l'orateur dans l'autobiographie, basée sur les concepts liés à ce type d'écriture et ses procédures artistiques et stylistiques, qui se réfèrent au soi dans son affiliation textuelle d'une part et sa présence réaliste d'autre part.

L'utilisation de (moi) a ses dimensions et ses spécificités qui confirme son importance et son rôle dans la détermination de l'identité du moi lorsque son image se reflète sur un espace papier que l'auteur interprète suffisamment pour raccourcir les étapes de sa vie de sa naissance à l'écriture associée à une compréhension profonde de la réalité et de sa variabilité.

توطئة:

تتناول السيرة^{*}، في حدّ من حدودها، "التعريف بحياة رجل أو أكثر تعريفاً يطول أو يقصر ويتعمق أو يبدو على السطح، تبعاً لحالة العصر الذي كتبت فيه الترجمة، وتبعاً لثقافة المترجم ومدى قدرته على رسم صورة كاملة واضحة دقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التي تجمعت لديه عن المترجم له"¹ ويتقاطع مصطلح (السيرة) من حيث دلالاته المفهومية بمصطلح الترجمة؛ لما بينهما من أوجه اتفاق واختلاف، على أن "الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى في هذا، فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها، فإذا طال النفس واتسعت الترجمة سُميت سيرة"² وفي ذلك دلالة على الفرق بينهما يجليّه الشكل نفسه؛ فإنّ طال النص المكتوب فهي بهذا المفهوم سيرة وإن قصر فهي ترجمة.

أما (السيرة الذاتية) بما هو مصطلح مركب فيتكون من وحدتين "معجميتين (سيرة) وتعني ترجمة إنسان أو قصة حياة، و(ذاتية) وتعني طريقة إنتاجها أو منتجها"³ ويقرّ أهل الاختصاص في هذا الصدد بصعوبة وضع مفهوم موحد يراعى فيه تحقق قدر من الاتفاق على طرق صياغته وتعريفه بما لا يدع مجالاً للاختلاف وتعدد الآراء.

آراء النقاد في السيرة الذاتية

ارتبطت السيرة الذاتية (Autobiographie)^{**} في بداية تشكلها بمعنيين متجاورين؛ المعنى الأول اقترحه مُعجم (لاروس (Larousse) العام 1866 بوصفها حياة فرد مكتوبة من طرفه، أما المعنى الثاني فينظر إلى السيرة الذاتية على أنها كل نص

يعبر فيه مؤلفه عن حياته وأحاسيسه، مهما كانت طبيعة العقد المقترح من طرف المؤلف، وهو الرأي الذي قصده "قايررو" (P.Guireau) في (المعجم الكوني للأدب) العام 1876⁴، ويبدو الفرق بين الرؤيتين في أن التعريف الثاني أعم من الأول وأكثر انفتاحاً على القارئ، الذي يُمكنه الاطلاع على مقصدية الكاتب، سواء أكانت ضمنية أم مصرّحاً بها . ويعرفها فيليب لوجون (Philippe Lejeune) بأنها "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، عند التركيز على حياته الفردية وتاريخ شخصيته"⁵ مبرزا صفة الاستعادة على أنها تقنية من تقنيات السرد وطرائقه في تعامله مع مفصل الزمن ومساراته؛ بدءاً من الماضي ووصولاً إلى اللحظة الآنية التي تعدّ، والحال هذه، محطة البدء الأولى، ومن ثمة فإن هذا الحدّ يقوم على عناصر تنتمي إلى أربعة أصناف هي:

- الموضوع، وله صلة بتاريخ شخصية معينة.

- الأسلوب القائم على النثر المترسل.

-وضعية السارد عند اضطراره بالحكي الاستعادي للأحداث.

- اسم المؤلف الذي يحيل على شخصية واقعية.

وقد أورد عمر حلي في معرض تقديمه لكتاب "فيليب لوجون" (السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي)، أن صاحب هذا الكتاب نفسه أقرّ في إعادة قراءة لحدّ هذا المصطلح بالمفارقة التي وقع فيها؛ حين ادّعى إمكانية التعامل مع المتن المدروس تعاملًا تجريبيًا استقرائيًا، سعياً لإثبات ما هو نظري بإجراءات تطبيقية أكثر دقة وعلمية؛ إذ كان يعتقد أن التعريف سالف الذكر يمثل نقطة انطلاق من أجل إقامة تفكيك تحليلي للعوامل التي تدخل في عملية إدراك النوع الأدبي، غير أنه، والرأي لعمر حلي، تحول إلى سلطة دوغمائية بعزله عن سياقه، وهكذا غدت نقطة انطلاقه هي نقطة نهايته⁶.

ويقول "فيليب لوجون"، تأكيداً على تراجعته عن صياغة تعريف جامع للسيرة الذاتية: "غير أنّ الحد الذي وضعته كان يترك عدداً من القضايا النظرية معلقة، وقد أحسست بالحاجة إلى تهذيبه وضبطه؛ بمحاولة العثور على مقاييس أكثر دقة، وبذلك لم يكن لي بدّ من أن أصادف في طريقي المناقشات الكلاسيكية التي يثيرها نوع السيرة الذاتية دائماً مثل: العلاقات بين السيرة والسيرة الذاتية والعلاقات بين الرواية والسيرة الذاتية، وهي قضايا معلقة بسبب تكرار البراهين وبسبب الغموض الذي يكتنف المصطلح المستعمل"⁷. والراجح أن هذا التراجع يُعزى إلى سبب آخر؛ يتمثل في كون الأشكال الإبداعية عامّة والسردية منها خصوصاً يدخل بعضها في مناطق تجاور وتماثل وتناسل، ما يجعل من مسألة الفصل المطلق بينها أمراً غاية في الصعوبة، لاسيما وأنها تستكمل وظيفتها التعبيرية بمثل علاقاتها المتشابكة تلك⁸.

وقد تراجع "لوجون" - أيضاً - عن موقف سابق يعتقد فيه بأن السيرة الذاتية لا تحتوي على درجات فهي كل شيء أو لاشيء، وأنّ التطابق بين الشخصية الورقية كما يجسدها العمل الأدبي والشخصية الواقعية كما هي في حضورها الحيّاتي، إمّا أن يكون أو لا يكون، إذ لا وجود حسبه لدرجة وسطى ممكنة فكل شك يقود إلى نتيجة سلبية.

وفي تراجعته عن مثل هذه الطروحات غياب إدراك لذلك التناقض "بين الموقف الذي يعلنه فيها وبين مجموع التحليلات التي قدمها في نفس الكتاب، والتي أكد من خلالها وجود الغموض والدرجات، وذلك عندما اعتمد على ما أسماه بفضاء السيرة الذاتية، ويرجع هذا التناقض إلى كونه كان يعتقد أن مركز المجال الأنثروبوغرافي هو الاعتراف، فقد قام بتقويم الكل بعد أن أخضعه لقواعد اشتغال جزء من أجزائه"⁹؛ إذ يعدّ هذا الفهم لمنطلق الاشتغال النصي باعثاً على خصوصية التصور وفراة النظرة لما ينبغي أن يكون عليه بناء السيرة من حيث شكلها الفني ومضمونها الخاص المقرون بأبعاد واقعية يستمد منها الكاتب مادته الحيّاتية؛ حيث يستطيع استلهاً معانيها انطلاقاً من خبرته ونظرتة للأمور ومآلاتها.

هكذا، ما كان لتلك الآراء أن تلقى رواجاً دونما أثر في توجّهات الدراسات السير ذاتية النقدية، ودونما ردّات فعل أيضاً كالتي أبدتها الفرنسية الآخر "جورج ماي" (George) may في كتابه (السيرة الذاتية)؛ إذ اختار إظهار العناصر الأجناسية المشتركة بين السيرة وباقي أشكال كتابة الذات الأخرى، تأكيداً منه على صعوبة الفصل بينها، وبرهنة على ميوعة الجنس السير ذاتي واستعصائه على محاولات تعريفه¹⁰.

فالقول "بتنوع الواقع المحسوس وتعدده بل وربما بعدم تجانسه إنما هو السبيل إلى إدراك قيمة الأدب السير ذاتي أفضل من تفكير، يترع إلى أن يختزل غزارة الواقع الأدبي ويرمي إلى إنشاء نموذج مجرد"¹¹، لا يزال حسبه في طور التكوّن تأكيداً منه على أنه ليس جنساً مستقلاً، إنما هو متداخل مع غيره من الأجناس، ولا يهدف في ارتحاله زمنياً إلى إعادة صوغ الماضي من حيث كونه زمناً دقيقاً، بقدر ما يطمح إلى تقديم صورة لهذا الماضي بإعادة ترتيب أحداثه¹²، وفي ذلك تباين في الرؤى المنهجية بينه وبين "فيليب لوجون".

والحال أن تأكيد "ماي" على أهمية الظواهر الاجتماعية والثقافية في تعيين مفهوم يميّز الأجناس الأدبية من بعضها البعض، ومواقفه النقدية من السيرة الذاتية وتبسيطه الضوء على عوامل ظهورها؛ هو اعتراف ولو ضمني بوجود هذا النوع من الكتابة، ولا يعني إقراره باستعصاء تعريفها إقصاءً لحمولتها الدلالية، وما لها من دور في تحديد معالم هويتها، وتلك سنّة دأب عليها النشاط النقدي حتى يحفظ لنفسه حضوره المعرفي في الساحتين الفكرية والثقافية.

ويحصر "ماي" العوامل آنفة الذكر في عاملين أساسيين هما: عامل الفرضية المسيحية المستندة إلى فعلين جوهريين قائمين على محاسبة النفس أولاً، والإيمان بالأخوة بين البشر وتساويهم في الحقوق والواجبات والمراتب ثانياً، أما العامل الآخر فمتعلق بتزوع المجتمعات الأوربية إلى العلمية واصطبغ الفردانية بالصبغة الإنسانية في عصر النهضة¹³.

ومن هذا المنطلق، يُمكن القول بأن تلك الجهود التي قام بها هذان الناقدان، وإن تباينت آراؤهما حيال الوجود الأجناسي للسيرة الذاتية وقضاياها، قد أسهمت بفضل ما لقيته أعمالهما^{**} من رواج في سوق النشر والتوزيع، في بروز السيرة الذاتية على مسرح الحياة الفكرية والأدبية سواء في انتمائها الثقافي الأوربي أم في خارجه.

ومن وجهة نظر أخرى، وخلافاً لما ذهب إليه هذان الناقدان، يعتقد "هيو ج سلفرمان" أن السيرة الذاتية هي عموماً نمط من أنماط النصية، يتموضع فضاءها الأدبي عند السطح البيئي القائم بين الأدب وغير الأدب¹⁴؛ حيث يُدمج كلٌّ من الزمان والمكان في بوتقة واحدة؛ فموقع السيرة الذاتية الأجناسي بناءً على هذا الفهم لا هو داخل الأدب ولا هو خارجه؛ لأن نصيتها "تشتغل عند نقطة تقاطع الزمانية المحضة والمكانية المحضة، في مكان الاختلاف حيث يلتقيان؛ والزمانية المحضة للسيرة الذاتية هي حياة كاتب السيرة الذاتية الخاصة [...] أما المكانية المحضة للسيرة الذاتية فهي عمل من جهة كونه شيئاً موضوعاً على الرفّ أو بين يدي شخص ما، لذلك يمكن تمييزه عن أي شيء آخر"¹⁵.

بيد أن تصور "سلفرمان" (H.J.Silverman) لموقع السيرة الذاتية ونظرته إلى ثنائية الزمان والمكان يجعل منها جنساً هلامياً مستعصاً على التحديد، لأنه لا يمكن، من منظور إجرائي، أن يوضع مفهوم للنصية إذا كان اشتغالها عند نقطة معينة دون سائر النقاط الأخرى المتضمنة في النص السير ذاتي، ثم إنّ تموضع هذا النص على السطح بين الأدب وغير الأدب يؤدي إلى إلحاقه بحقل المعرفة المشاعة، وإبعاده عن الفعل الإبداعي وما يتطلبه من تخصص ودراية بأصول الكتابة السير ذاتية.

أما عند النقاد العرب ممّن اهتموا بكتابة الذات وخصائصها النصية فيذكر موقف محمد صابر عبيد في الذي يعدها نمطاً سردياً حكاثياً ينتظم في فضاء زمكاني محدد، يتولى فيه الراوي ترجمة حياة ذات خصوصية إبداعية في مجال حيوي أو

معرفي، فيها من العمق والغنى ما يستحق أن يروى ليقدم تجربة يمكن أن تثري تجارب القارئ، وتُخصب معرفته بالحياة من خلال الاطلاع عليها والإفادة منها¹⁶ بتوافر شروط في شخص المترجم لنفسه، أهمها أن يتمتع بمعرفة كافية بأصول هذا النوع من الكتابة، فضلا عن امتلاك قابلية سرد الأحداث ضمن أسس تعبيرية وأسلوبية خاصة، أما السيرة الذاتية لتحديد، والرأي لمحمد صابر عبيد، فيتكفل صاحبها برؤية أحداث حياته الأكثر حضورا في ذاكرته، وتركيز على مجال فني أو أدبي، أو اجتماعي أو سياسي أو عسكري، تميزت فيه شخصيته "ويسعى في ذلك إلى انتخاب حلقات معينة مركزة من سيرة هذه الحياة، وحشدها بأسلوبية خاصة تضمن له صناعة نص سردي متكامل ذا مضمون مقنع ومثير ومُسَلِّ [...]" ولا يشترط في الراوي الاعتماد على الضمير الأول (المتكلم)، بل قد يتقنع بضمائر أخرى تخفف من حدة الضمير المتكلم وانحياز، بشرط أن يعرف المتلقي ذلك لكي لا تتحول إلى سيرة غيرية، بحيث يظل الميثاق السير ذاتي بين الكاتب والمتلقي قائما وواضحا¹⁷. بما يكفي لإضاءة سبل التعرف على هذا الراوي وشخصيته وما يحيط بها من مواقف وسلوكات تدل بشكل مضمر أو صريح على مهمة الذات ودورها الحياتي في سعيها لتخليد حضورها آتيا ومستقبليا.

ويُحيل عبد السلام المسدي إلى مفهوم السيرة الذاتية انطلاقا من إطار اهتمام الفرد بحياته الشخصية، وما تحمله من تضافر ضريين من ازدواجية الظاهر والباطن من جهة، والموضوعي والذاتي من جهة أخرى؛ فإذا بهذه الازدواجية المتضاعفة معضلة فنية لا يقاس توفيق الكاتب فيها إلا بمقدار إحكام نسيج ظفيرتها، على أن الثنائية التي يجتمع فيها تتبع الأحداث الخارجي واستبطان أحوال النفس الداخلي؛ هي ما يدفع الناقد إلى استشفاف طبيعة الالتحام في هذا الجنس بين مستلزمات الأنا في حاضرها، ومقتضيات الغائب من الأحاسيس والمشاعر¹⁸ على أن المقتضى ههنا مرهون بقدرة الذات على تحديد الهدف الأسمى للكتابة وحدود الاعتراف فيها وهذا بالخوض في تفصيل المخطات التي عاينها الكاتب تأثرا وتأثيرا، والمعاينة في بعدها الخطي هي انتقال بالذكريات المختزنة من محطات الاستحضارية إلى حضورها النصي. بمعطياته الفنية ومكوناته اللغوية اعتمادا على آلية تكتيف الأحداث واختصار المواقف؛ ومع ذلك ستظل هذه العملية مقصورة على المخطات الفارقة في حياة الأنا فمن غير الممكن الإلمام بالتفاصيل الحياتية كلها في نص سير- ذاتي محدد بعدد من الصفحات ليس بمقدورها الإحاطة بمراحل عمرية متعاقبة بدءا من مرحلة الطفولة وانتهاءً بلحظة كتابة السيرة الذاتية المتصلة بإدراك خاص وفهم عميق للواقع وتقلباته.

هكذا، تبدو السيرة الذاتية "طريقة لتوثيق الصلة بالحاضر ووسيلة دائمة لوضع العالم والإنسان موضع التساؤل"¹⁹ وحُكْم أيضا على علاقة المبدع بمحيطه المنتمي إليه والذي يتميز بخصوصية واقعيته وسمو غايته؛ حينها يغدو النص السير ذاتي، حال صياغته، مركزا بؤريا يلمّ شتات حياة الأنا بتحولها إلى مركز استقطاب يسعى للتأثير في القارئ واستمالاته ودفعه للتأمل والبحث عن طبيعة هذه الذات انطلاقا من المعطى اللغوي المائل في مستويات التشكيل وفقا لمقتضيات فعل الكتابة وآليات تجسيدها.

أما أمل التميمي فتقترح تعريفا آخر يبدو للوهلة الأولى إثراء لتعريف "فيليب لوجون" السابق ذكره؛ فالسيرة الذاتية حسبها "حكي استعادي نثري، يتسم بالتماسك والتسلسل في سرد الأحداث يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة، ويشترط فيه أن يصرح الكاتب بأسلوب مباشر أو غير مباشر أن ما يكتبه هو سيرة ذاتية"²⁰؛ إذ يظهر اهتمامها بتقنيات هذا النوع من الكتابة وتركيزها على دور هذا المنحى في تحديد هوية النصوص وانتمائها الأجناسي زيادة على الإفادة المقدمة من قبل الكاتب نفسه تلميحا أو تصريحاً.

وتؤكد تفصيلاً لما مضى، بأنّ هذا النوع من الكتابة يقوم بها شخص واقعي بشكل مُعلن في عمر ناضج، مستعيداً موقفاً أو مواقف من خبراته وأفعاله وتفاعلاته وأحاسيسه، مشترطاً أن تكون بواعث الكتابة هاته سبيلاً لتنظيم الذكريات وتحديد نوع الكتابة²¹، وهي ترى في السيرة الذاتية انطلاقة من كونها فعلاً استعادياً شهادة لازمة عن فترة ماضية وانعطافاً على زمن انقضت لحظاته.

ومن صفوة القول الإقرار بوجود أدوات خاصة يستلزم على كاتب السيرة معرفتها عند تحويل حياته إلى واقعة ورقية، منها إدراك بنية السيرة الذاتية وأسلوبها الفني، والقدرة على ضبط الأحداث زمنياً، والوعي التام بطبيعتها وقيمتها حاضراً ومستقبلاً، واستيعاب دورها الذي يمكنها تأديته في واقعه المعيش، ويمكن لتلك الأدوات أن تكون مؤشراً كافياً على ما تتميز به السيرة الذاتية من معرفة متعلقة بفهم "للأدب ووظيفته وجماليته وعملية إبداعه، كما يمكن أن تتضمن أفكاراً أدبية، وأحكاماً نقدية وشهادات حول كتاب جائلهم أو كتابات قرأها أو أحداث عاصرها أو تحولات تاريخية واجتماعية وسياسية، ساير تطوراتها وواكب صيرورتها"²²، فالنص السير ذاتي بهذا الشكل مشروع قراءة قابلة لأن تتحدد بموجبه الهوية السيرة الذاتية، دون اللجوء إلى عوامل خارجية لإثبات هذه الهوية، وهو ما يصطلح عليه بالمعاهدة النصية.

خصوصية فعل الكتابة في السيرة الذاتية

وتستهدف كتابة الأنا في السيرة الذاتية تحقيق نوع من الإحالة على سمة من سماته الفارقة، ممثلة في استعمال الضمير الدال أصالة على المتكلم وهوية النص أيضاً؛ إذ يُمنح حينها ميثاقاً يدعم مشروعية قراءته ومن ثمّ تحديد جنسه؛ فيغدو بهذه الملمح ظهوراً لأفق لغوي يمتد إلى أفق القارئ وحواراً على مستوى القراءة/الكتابة ينشأ بين النص والقارئ، على اعتبار أن كليهما يمتلك شروط الحياة والكيونة، ويبقى فهم النصوص مقارنة لإمكانات استحالة علامات النص المكتوبة إلى معان، محاولة لاستيعابها والإمساك بكيونيتها وماهيتها.

هكذا، ترتبط البدايات بالميلاد والتحدد وترتبط النهايات بالموت والزوال، لذا عنّ تصوران مختلفان للزمن؛ "تصور دائري حيث لا توجد نهاية ولكن الأشياء تولد ثم تموت لتولد من جديد، والنهاية ليست إلا مرحلة في دورة الزمن، والآخر تصور خطي للزمن؛ حيث تولد الأشياء ثم تنمو ثم تضمحل ثم تفنى وتتلشى، في الأولى نجد نهاية مرحلية وفي الأخرى نهاية مطلقة"²³.

لذا فإن مسألة النص السير ذاتي لا تقتصر، ضمن أطرها المعرفية، على علاقة الإبداع الفني بالتجربة الحياتية؛ فالغوص في أعماق هذا النوع من الكتابة يستلزم - أيضاً - توافر أدوات نقدية تحكم له أو عليه، بمثل هذا يمكن أن يستقر على حال من التوافق إزاء جنسه وشكله ومضمونه، وتلك عناصر يكون لها حضورها إذا ما تضافرت محددة قدرة النص السير ذاتي على "تقريب الذات من العالم عن طريق القراءة المفصلة للذات وللكتابة، حيث يمكن تشكيل الحقيقة التي لا تغفل في جوانبها أنها تستقر في الذات نفسها"²⁴.

وقد أثارت الضمائر وموقعها في النصوص السير ذاتية شغف الدارسين باختلاف حقولهم المعرفية؛ سواء أكانت لسانية بتركيزها على وظيفة الضمير في الجملة أم تداولية منظور إليه من موقع اشتغاله ضمن منظومة حياتية متفاعلة، لذا يمثل توظيف ضمير المتكلم (أنا) ظاهرة أسلوبية لافتة بخصوصية صلتها بالكاتب نفسه الذي يحقق حضوره النصي تطابقاً اسمياً بين الكاتب والشارد والبطل. ويتحدد ضمير المتكلم بوساطة تمفصل مستويين أولاهما الإحالة: فليس للضمائر الشخصية (ضمير المتكلم وضمير المخاطب) إحالة إلا داخل الخطاب، وثانيهما الملفوظ؛ إذ تشير الضمائر الشخصية إلى تطابق ذات التلفظ وذات الملفوظ²⁵.

ويذهب عبد الملك مرتاض إلى القول بنشأة ضمير المتكلم فنيا عن السيرة الذاتية أي عن شكل سردي ذاتي له صلة وثقى بالواقع التاريخي، واستعماله نشأ متواكبا مع ازدهار أدب السيرة الذاتية، فكأنه امتداد لها أو كأنها امتداد منه، كما نشأ عن ازدهار حركة التحليل النفسي²⁶، وهذا الرأي لا يقصي من منظور تطور توظيف الأنا إبداعيا حضوره في الشعر والشعر الفخري بخاصة، حيث صار مظهرا أسلوبيا ودعامة من دعائم التعبير بالكلمة عن الذات انتسابا ومكانة ووجاهة، لاسيما وأن الافتخار مرده الشعور بالمتزلة التي تنبؤها الأنا في نطاقها الفردي، أو التي تحظى بها في نطاقها الجمعي، بما هي جزء من (نحن) المجتمع المنتمية إليه.

إنّ الضمير بهذا الشكل يستخدم "بطريقة متميزة على امتداد المحكي، فمن البديهي أن ضمير المتكلم لا يدرك دون ضمير مخاطب (القارئ)، غير أن هذا الأخير يبقى ضمينا هو الآخر، كما يمكن للسرد بضمير الغائب أن يتضمن تدخلات للسارد بضمير المتكلم"²⁷ الذي يُمثل إعلانه تأويلا وسيلة من وسائل إعلاء شأن الذات في مضمون النص السير ذاتي. وإذا كان اعتماد ضمير المتكلم (أنا) يضيف على كتابة الذات بُعدا مائزا لطبيعتها الفردية، فإن الكاتب نفسه قد يتقنع بضمائر أخرى، تخفف من حدة هذا الضمير وأنانيته شرط أن يعرف المتلقي ذلك كي لا تتحول العملية فنيا إلى سيرة غيرية، ويظل الميثاق السير ذاتي فيصلا بين المبدع والقارئ في مثل هذه الحالات، التي تستدعي الإبانة عن وجهة الضمير الموظف الذاتية (Subjectivité).

ومن المهتمين بشأن الكتابة السير ذاتية من يعتقد بأن ضمير المتكلم ليس باستطاعته دوما التعبير عن الذات المتكلمة، بما تحمله من عوالم خاصة وأزمنة ولّت وانقضت، فيها تفاصيل نابضة بالحياة²⁸، فالأمر حسب هؤلاء موكول إلى قدرة الكاتب على التنوع الأسلوبي في توظيف ضمائر أخرى يتقنع بها النص.

ومن أشكال هذا التقنع توظيف ضمير الغائب؛ الذي تبدو العلاقة بينه وبين ضمير المتكلم "علاقة تبادل إرسال الخطاب بحيث يترك أحدهما المجال للآخر، لا ليلقي علينا الحدث من رؤية سردية مغايرة، ولكن فقط لإيهامنا بأن هناك خطابين متضافرين ومتمايزين"²⁹ كما هو الحال في سيرة (الأيام) لطف حسين؛ حيث يساعد ضمير الغائب على الكتابة بنوع من الاستقلالية عن الأنا الضاغطة مما يؤدي إلى إنشاء مسافة فاصلة بين المؤلف والشخصية. والحديث عن تلك المسافة الفاصلة إنما يتحقق بظاهر البنية النصية التي يميز فيها الدارس بين (الأنا) المتكلم و(هو) الغائب المستتر والمقدّر، بخلاف استخدام ضمير المتكلم الذي يأخذ في إحدى تأويلاته شكلا من أشكال تماهي الكاتب بالشخصية المحورية في الكتابة السير ذاتية، حيث لا صوت يعلو على صوت الذات في تقديمها لمواقفها من الوقائع الحياتية من منظورها الخاص، فليجأ حينها كاتب السيرة إلى تناول جانب من جوانب حياة الأنا مستعيدا مساراتها الفكرية والثقافية والتعليمية بشيء من التفاصيل لبعض الأحداث والمواقف وانتقاء لأخرى لم يعد لها أثر حيّاتي يستحق أن يحظى بالتقيد كتابةً وتوثيقا.

وعليه فإن سلطة الكتابة، انطلاقا مما مضى، تمثل مسافة إبداعية يقطعها المؤلف أثناء صياغة تجربته بوعي خاص، كشفا لما خفي من سجل حياته الماضية ومحاولة لإثبات حضور الأنا وهذا بالعودة إلى الماضي وما فيه من ذكريات وأحوال وظروف معبرا عنها على مساحة ورقية تتحول فيها الأنا من صيغة نحوية إلى كينونة شخصية "تحيل على المؤلف كذلك؛ لأن فيه تصريحه بالوجود المفرد المؤسس على تجربة خصوصية لا تسري عليها المقارنة بغيرها، ونضيف إلى ذلك أن الضمير بهذا المعنى صار جزءا من النسب الذي ينحدر منه"³⁰، وهذا ما يعني من منظور إجرائي أهمية ما يدل عليه توظيف ضمير المتكلم بشكله اللغوي المتأسس على صياغته النصية الماثلة في تظاهراته اللافتة التي تعدّ ملمحا أسلوبيا كثيرا ما يتحدد

موجبه السمات المميّزة لوجهة السرد وطبيعة السارد على حدّ سواء، وهذا بالنظر إلى انصهارهما الفني في لب النص وأعماقه.

لذا وتأسيساً على ماسبق فإنّ السيرة الذاتية انعكاس للتجارب الإنسانية وصورة من صور تشكل الأنا عبر مسيرتها العمرية خطياً مستحضرة من الزمن ما بقي لها من حركات وسكنات، تنشّد بعثها من جديد؛ في قالب فني موصول بفلسفات فكرية وتحولات واقعية وطبائع مجتمعات استمد منها مضامين نصية لافتة ببنائها وطرائق عرضها. وتشكل الأنا في متون هذا النوع من الكتابة له دواعيه المحددة لأسباب توظيفه وإحاطته بنوع من التفضيل على حساب الضمائر الأخرى، لأنه حينما يتمظهر نصياً ستتضح للقارئ وجهة النص وطبيعته، وسيعينه ذلك على تعيين البؤر المهيمنة داخله بما هي عناصر أسلوبية يتكون بوساطتها شكل الكتابة وانتماؤها الأجناسي. هوامش الدراسة:

* / لفظ (السيرة) معناه "الطريقة، يقال: سار بهم سيرة حسنة، والسيرة: الهيئة [...] وسير سيرة حدثت أحاديث الأوائل". ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج: 4، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، مادة: سير

وفي (تاج العروس) "السيرة بالكسر السُّنة، وقد سارت سيرتها والسيرة الطريقة، يقال سار الولي في رعيته سيرة حسنة، والسيرة الهيئة¹، وبها فُسِّر قوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾"¹. ينظر: مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، م1، ط1، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1306هـ، مادة: سير.

1 - محمد عبد الغني حسن: التراجم والسير، ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1980، ص09.

2 - المرجع نفسه، ص 28.

3 - عبد العاطي إبراهيم هوارى: لغة التهميش (سيرة الذات المهمشة)، ط1، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2008، ص21-22.

** / يرجح أن مصطلح (السيرة الذاتية) المعاصر ظهر للمرة الأولى في فرنسا خلال القرن التاسع عشر وتحديدًا العام 1832 وهو ترجمة لمصطلح (Autobiographie) وأصوله يونانية ويتركب من: الذات (Auto) والحياة (bio) والكتابة (graphie). لمزيد من التفصيل ينظر: عمر منيب إدلي: سرد الذات - فن السيرة الذاتية، ص25.

4 - ينظر: فيليب لوجون: السيرة الذاتية، تر: عمر حلي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص 10.

5 - Philippe lejeune: Le pacte autobiographique, édition seuil, collection: poétique, Paris 1975, p14

6 - ينظر: فيليب لوجون: السيرة الذاتية - الميثاق والتاريخ الأدبي - ص 8-9.

7 - المرجع السابق نفسه، ص21.

8 - ينظر: عمر منيب إدلي: سرد الذات - فن السيرة الذاتية، ط1، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2008، ص31.

9 - فيليب لوجون: السيرة الذاتية - الميثاق والتاريخ الأدبي، ص12.

10 - ينظر: جلييلة الطريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د/ ط، مؤسسة النشر الجامعي، تونس، 2004، ص76.

11 - المرجع نفسه، ص76.

- 12 - ينظر: جورج ماي: السيرة الذاتية، تعريب: محمد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1999، ص144.
- 13 - ينظر: جلييلة الطريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص105.
- ** / منها كتاب (l'autobiographie) لجورج ماي، ومؤلفات لوجون: السيرة الذاتية في فرنسا (l'autobiographie en France) الصادر العام 1971 وكتابه: أنا هو آخر (je est un autre) الصادر العام 1980 وكتابه: أنا أيضا (moi aussi) الصادر العام 1986.
- 14 - ينظر: هيو ج سلفرمان: نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، تر: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، 2002، ص144.
- 15 - المرجع نفسه، ص147.
- 16 - ينظر: محمد صابر عبيد: السيرة الذاتية الشعرية، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 2007، ص109.
- 17 - المرجع نفسه، ص110.
- 18 - ينظر: عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، ط01، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1983، ص114.
- 19 - عبد الكريم الخطيبي: في الكتابة والتجربة، تر: د. محمد برادة، ط1، دار العودة، بيروت، لبنان، 1980، ص108.
- 20 - هاني عبد الفتاح شاكر: السيرة الذاتية في الأدب العربي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2002، ص16.
- 21 - ينظر: أمل التميمي: السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2005، ص28.
- 22 - عبد الله العشي: زحام الخطابات، د/ ط، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، 2005، ص106.
- 23 - سيزا قاسم: القارئ والنص (العلامة والدلالة)، د/ ط، الشركة الدولية للطباعة، مدينة 06 أكتوبر، القاهرة، 2002، ص78.
- 24 - عمارة ناصر: اللغة والتأويل، ط01، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الفارابي، بيروت، 2007، ص25-26.
- 25 - ينظر: فيليب لوجون: السيرة الذاتية - الميثاق والتاريخ الأدبي، ص30.
- 26 - ينظر: عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص161-162.
- 27 - ينظر: فيليب لوجون: السيرة الذاتية - الميثاق والتاريخ الأدبي، ص27.
- 28 - ينظر: عبد المالك أشهبون: من خطاب السيرة المحدود إلى عوالم التخيل الذاتي الرحبة، ص78.
- 29 - سعيد يقطين: القراءة والتجربة، ط01، دار الثقافة، المغرب، 1985، ص98-99.
- 30 - عبد القادر الشاوي: الكتابة والوجود - السيرة الذاتية في المغرب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، 2000، ص52.